التام ان اقتضى الامر .. انه شك عند العتبات ، لم يصل الى نظريته النقدية شيء منه مما جعل نقده نقدا انطباعيا هو ما نراه الان من ضعف عند غالبية من يقال عنهم انهم نقاد .. وهكذا تتناثر الافعال اجمل وأرق وأعظم وأعذب الى اخر قائمة افاعل التفضيل على مدى السبعمائة صفحة التي يشغلها الكتاب ولم يفارقه هذه الطريقة حتى في اواخر كتاباته ، فقد قال عن رواية (بين القصرين) لنجيب محفوظ عام ١٩٥٨ : «ان هذه القصة هي اروع ما قرأت من القصص المصري منذ اخذ المصريون يكتبون القصص» (من ادبنا المعاصر : ص ٦٨) .

بل تتسلل هذه الاحكام التفضيلية في الدراسات التاريخية . يقول في (مرآة الاسلام) عام ١٩٦٠ : «لم يصورهم (القرآن) اروع تصوير وأبرعه» (ص ٩٧) بل انه في (الفتنة الكبرى – علي وبنوه) عام ١٩٥٣ يقول : «والتكلف في هذه القضية اظهر من ان يحتاج الى كثير عناء في ردها . فلم يكن عليّ واصحابه من الغفلة بحيث تدبر الخيانة في معسكرهم ويدبرها قوم من قادتهم وهم لا يشعرون . وانما الوجه الذي يلائم طبيعة الاشياء هو ما رواه المعتدلون من المؤرخين من ان القوم التقوا عند البصرة ووقف بعضهم لبعض ، وتناظروا ولم تغن المناظرة منهم شيئا فكان ما لم يكن بد من ان يكون» (ص ٤٦–٤٧) .. فقد امتزج فعل (أظهر) بعدم التدقيق في المنطلقات الفكرية ، ولم يخيم الشك على ما يعتبره ملائما لطبيعة الاشياء ، فلماذا لا يمكن ان يكون علي غافلا هو واصحابه حتى ان الخيانة تدبر في معسكره وهو لا يدري؟ وما الذي يمنع الشك في رأي المعتدلة ؟ وما الذي يمنع الشك في اخذ الاستاذ العميد برأي المعتدلة ؟ بل ان هذه الطريقة في التفضيل نجعله يفترض تقديس الافراد التاريخية مقدما ، ثم يرتب الادلة بعد هذا التبرير هذا التقديس على نحو ما فعله بالنسبة لشخصية علي ابن ابي طالب .. يقول في كتابه (الشيخان): «وعلي أفضل في نفسه وأكرم عند الله من ان يبايع الشيخين بلسانه ويضمر في قلبه غير ما كان يظهر» (ص ٤٥) .. انه يفترض نزاهة علي اصلا ، وهي نزاهة قد تكون حقا ، دون ان يتخذ الشك منهجا قد يوصله الى صورة اخرى او للصورة نفسها التي رسمها لعلي ، ولكن تأتي بعد الشك والتعمق..

فما العلة يا ترى في قصور هذا الشك في ايدي العميد ؟ هل هو قصور في الفهم ام انه قصور في التطبيق ؟ ام ان هناك شيئا ثالثا يند على هذين السببين ؟ اترى ان الامر يرجع الى غلبة المعلم والداعية على المفكر والمنظر ؟ لقد اقتصر الشك عند الاستاذ العميد على عملية التطهير ، انه يريد ان يخرج المصريين من غفونهم ويحثهم على الاستيقاظ .. وكان خير شيء لديه هو الشطر الاول من دعوة ديكارت في قاعدته الاولى « لا اقبل شيئا على انه حق سواء قاله القدماء او المحدثون .. انه يريد ان يخرجنا من الاطر التي تعودنا عليها وذلك تمشيا مع مبدئه في الحرية .. الحرية التي هي ضد القيد .. يقول: «يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه ان ننسى قوميتنا وكل شخصياتها ، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به وأن ننسى ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين ، يجب الا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء الا مناهج البحث العلمي الصحيح» (في الشعر الجاهلي: ص ١٢) .. لكن هذا الشك لم يكن اصيلا ومتطرفا لان هذا مرتبط بموقفه الفكري العام كما سيتبين بعد قليل ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى لانه يؤمن بأن «الشك والافكار عقيمان بطبعهما وليس من الخير ان ينتهي عندها الباحث الا اذا اضطر الى ذلك اضطرارا » (حديث الاربعاء ، جزء اول : ص ١٨١) فقد كان يخشى ان يستحيل الشك احيانا الى شك حقيقي يزعزع كل الاسس . ولانه من جهة ثالثة كان يتأرجح منذ كتاباته الاولى بين منهجين ، وهو لم يختر احدهما ، بل اختارهما معا ، ليس في كتاباته الاولى فحسب ، بل طوال حياته ، وذلك لان هذا الموقف من المنهج مرتبط اشد الارتباط بموقفه الفكري

– التتمة على الصفحة – ٦٨ –

القرار والقمة

ذو النون ببطن الحوت
تأكله الظلمه
يحلم بالحب على شفتي نجمه
ويموت الحب يموت
ويمص الحقد عبير الزهره
في ارض الموتى
عطشى للغيمة
ويموت الصبح بقلب الضوء
ويذيب الثلج عطاء الدفء
يتلاشى الكون يموت
ذو النون ببطن الحوت
يصرخ في الظلمة :
الرحمة أسطورة
يلفظها (١) قلم الشاعر
والحرف قتيل
أبلع صوتي
احمل موتي
والعدم الثائر

• • • •

لفظ (٢) الحوت بقايا اللعنة من جوفه
للارض الكبرى
شفة خرساء وقلبا ساخر

بغداد — **حياة جاسم**

---

(١) ، (٢) : (لفظ) استعملت بمعنى رمى او طرح